ملامح النهضة النحوية

في ما وراء النهر منذ الفتح الإسلامي حتى القرن الخامس للهجرة

د. مفيدة صالح المغربي

د. مفيدة صالح المغربي

أستاذ اللغة العربية وآدابها

مصر

Aadan78@yahoo.com

ملامح النهضة النحوية في ما رواء النهر منذ الفتح الإسلامي حتى القرن الخامس للهجرة

منذ أن فتح العرب ما وراء النهر عام 96 هـ، صارت العربية هي اللغة الرسمية للبلاد، لغةَ الحكام والرسائل والمكاتبات، وهي اللغة التي يمارس بها المسلمون عربًا وعجمًا شعائرهم، وباستقرار العرب في ما وراء النهر تجارًا ومهاجرين وفاتحين واختلاطهم بأهل البلاد وتزاوجهم معهم انتشرت العربية بصورة أوسع[1]. وقد تمثلت خطوات تعريب المجتمع النهري في بناء المساجد وإقامة الدور للعرب[2]، واستقدام العلماء لتعليم الدين الإسلامي[3]، وإطلاق الأسماء العربية على القرى والمحالِّ والدروب والسكك والميادين[4]، وعلى المساجد[5]، واستطاعت الكلمات العربية أن تنفُذ إلى اللهجات المحلية بسرعة عجيبة؛ نظرًا لسهولتها مقارنة بالكلمات الإيرانية القديمة الصعبة النطق؛ فراجت المفردات العربية خلال فترة وجيزة وحاصرت مقابلها

---

(1) ينظر: إقليم الشاش، ص37. رسالة ماجستير.

(2) تاريخ بخارى، ڤامبري: ص88.

(3) مظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية في خراسان وما وراء النهر، ص55.

(4) ينظر:عروبة العلماء المنسوبين إلى البلدان الأعجمية في المشرق الإسلامي: ص81.

(5) ينظر: تاريخ بخارى، للنرشخي ص58،ص80،القند في ذكر علماء سمرقند، لنجم الدين عمر بن محمد النسفي: ص451.الجواهر المضية في طبقات الحنفية، لمحيي الدين أبي محمد عبد القادر بن نصر الله القرشي الحنفي: 320/3.

الفارسي[6]. وكان تعريب الدواوين قد ساعد على نقل العربية إلى مستوى الاستخدام الكامل في جهاز الدولة الإسلامية فأصبح لزامًا على كُتَّاب الدولة أن يتعلموا العربية[7].

هكذا رسخت أقدام العربية بما وراء النهر واتخذت منها دارًا وقرارًا، ولعل أصدق ما قيل تعبيرًا عن الصورة التي انتشرت بها العربية في ما وراء النهر إبان تلك الفترة قول أحد علماء الفارسية: "وخلال مائتي سنة من سلطان العرب انتشرت اللغة –العربية–حتى شملت البلاد الإيرانية كلها، ونحن لا نستطيع أن نرى أقل مشابهة لهذا في تاريخ العالم إذ بسطت العربية نفوذها واسعًا كما أن تأثيرها قد بلغ حدًّا بعيدا"[8]. وإذ يُجمع علماء الفارسية على أن العربية سادت بما وراء النهر في هذه الفترة وازدهرت ازدهارًا كبيرًا حتى استوعبها الإيرانيون وصارت لغة العلم والأدب[9]، لكنها لَقِيت على لسان غير العرب تغييرات على مستويات عدة.

فيمكننا القول: إن العربية بما وراء النهر في تلك الفترة السابقة للقرن الرابع الهجري إبان فترة الحكم العربي كانت على مستويين، المستوى الأول: هو العربية الفصحى: لغة الكتابة والإنشاء والتعليم، وأما المستوى الآخر فكان مستوى العامية لغة الحديث اليومي وهي عربية مشوبة ببعض الألفاظ الأعجمية التي أغلبها أسماء مدن أو أشخاص أو آلات.

إن الاختلاط الذي حدث بين العربية ولغة أهل البلاد، وما نتج عنه من آثارٍ على العربية بجميع مستوياتها وانتشار العامية، وظهور الأخطاء اللغوية حتى في الدوائر الأولى في المجتمع العربي، هذا الأمر لم يكن من السهل تقبله لدى القبائل العربية العريقة في الفصحى التي استوطنت ما وراء النهر كالأزد ومُضَر وربيعة الذين بقوا على عربيتهم، "حيث كانت هذه التجديدات اللغوية عند العرب– ذوي الإحساس بجمال لغتهم منذ القدم – خطأ لغويًّا ولحنًا

(6) ينظر: تاريخ اللغات الإيرانية، د.عبد السلام فهمي: ص 90.

(7) ينظر: اللغة العربية عبر القرون: ص49.

(8) تاريخ الأدب الفارسي: ص14.

(9) تركستان، بارتولد:ص60، تاريخ الأدب الفارسي: ص17، تاريخ اللغات الإيرانية: ص91، صلات بين العرب والفرس والترك، حسين مجيب المصري: ص85.

فاحشًا؛ ولهذا بدأت في دوائرهم ردود الفعل ضد فساد اللغة"[10]. **فاتخذوا لذلك الأسباب التي منها:**

الارتحال في طلب العلم: وأخذ اللغة عن الثقات، هناك في البصرة والكوفة حيث كان التناحر على أشُده بين الفريقين، لقي بعضُهم إبَّان هذه الرحلات مشاهيرَ اللغويين والنحويين في البصرة والكوفة.

وكان من أشْهَرِ المُرْتَحِلين من ما وراء النهر أبو منصور نصر بن داود بن طوق الصاغاني(ت:271هـ) الذي صاحَب أبا عبيد القاسم بن سلام وأخذ عنه علم القراءات- ولا شك أنه أخذ عنه اللغة والغريب أيضًا-، وأخذ عنه القاسم بن محمد الأنباري(ت:304هـ)، حتى صار واحدًا من أعلام النحويين وعدَّه الزُّبيدي في الطبقة الرابعة من النحويين الكوفيين[11].

وقرأ الهيثم بن كليب الشاشي الأدب على ابن قتيبة[12].

وروى أبو أحمد عيسى بن الجُنَيد الكِسِّيّ النحوي عن أبي عبيدة معمر بن المثنى، وعن هشام الكلبي وغيرهما[13]. كما لقي عددٌ منهم النضرَ بن شميل كرجاء بن مُرَجَّى[14]، وبيان بن عمرو البخاري[15]، ومحمد بن يوسف البيكندي[16].

---

(10) العربية، يوهان فك: ص41.

(11) طبقات النحويين واللغويين، لأبي بكر الأندلسي الزبيدي: ص206. تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي:492/13.

(12) اللباب في تهذيب الأنساب، لعز الدين بن الأثير بن الجزري:1 /182. والهيثم بن كليب بن سريج بن معقل الشاشي أبو سعيد من أعلام المحدثين سمع ببغداد محدث ما وراء النهر، صاحب: المسند الكبير، مات بالشاش سنة (335هـ). سير أعلام النبلاء :15 /359.

(13) القند: ص600.

(14) رجاء بن مرجي الغفاري المروزي وقيل: السمرقندي الحافظ الجوال روى عن النضر بن شميل وأبي نعيم وعنه أبو داود وابن ماجة مات سنة: 249هـ. القند ص164.

(15) بيان بن عمرو أبو محمد، البخارى، روى عنه الإمام محمد بن إسماعيل البخاري وأهل بلده، مات سنة(222هـ).ينظر: التاريخ الكبير، للإمام البخاري: 2 /134، الثقات لابن حبان :8 /155.

(16) ينظر: سير أعلام النبلاء، 320/9.

وكان عدد منهم قد لقي في تلك الرحلات كبار الفقهاء والعلماء والفصحاء، فقد لقي أبو حنيفة الخوارزمي[17] الإمامَ الأعظمَ أبا حنيفة النعمان–وكان حُجَّة في اللغة– ودرس عليه وعنه أخذ، كما لقي إسماعيلُ بن إبراهيم البخاري –والدُ الإمام البخاري صاحبِ الصحيح– الإمامَ مالكًا وعبدَالله بنَ المبارك وأخذ عنهما[18].

وعلى الجانب الآخر رحل عددٌ من العلماء إلى ما وراء النهر بعد أن ذاع صيتها بطيب المقام فيها وبشغف أهلها بطلب العلم، ومِن أشهر مَن حلَّ مِن النحويين بما وراء النهر وكان له أثرٌ بارزٌ في الدراسات النحوية:

أبوعوسجة توبة بن قتيبة الهجيمي النحوي الأعرابي، وقد روى أبو عوسجة عن الأصمعي في بني أصمع، وكان يذهب مذهب أبي عبيدة معمر بن المثنى في باب الأدب(19)، وهو أستاذ الإمام أبي منصور الماتريدي(20) في الأدب، وممن قدم ما وراء النهر كذلك، أبو عمير عبيد بن موسى المروزي ثم النسفي الذي روى عن أبي معاذ النحوي(21).

ومن أشهر المرتحلين في تلك الآونة أبو بكر بن الخياط(ت:320هـ) الذي رحل إلى بغداد وأقام بها وصاحب ثعلبًا، وناظر الزجاج، وتتلمذ على يديه أبو القاسم الزجاجي، وأبو علي الفارسي، وأصبح عَلَمًا من أعلام النحاة[22] بل ومؤسسًا لأحد أكبر المذاهب النحوية. والإمام أبو نصر الجوهري(ت:393هـ) صاحب الصِّحاح الذي جاوز في رحلته الحواضر إلى البوادي فقرأ العربية

---

(17) هكذا ذكر بكنيته دون ذكر اسمه في تاج التراجم، لابن قطلوبغا السودوني: ص330.

(18) الإمام البخاري محدثا وفقيها ص24.

(19) القند، ص116.

(20) هو محمد بن محمد بن محمود الماتريدي نسبة إلى محلة ماترید بسمرقند، رئيس أهل السنة، تراجع ترجمته في معجم المفسرين، لعادل نويهض : 611/2.

(21) هو العلامة اللغوي الفضل بن خالد أبو معاذ النحوي المروزي روى عن عبدالله بن المبارك، أكثر الأزهري من الرواية عنه في التهذيب، وذكره ابن حبان في الثقات، توفي سنة 211هـ. ينظر الوافي بالوفيات :37/24 . بغية الوعاة ، للسيوطي: 2 /245.

(22) بغية الوعاة: 48/1.

بالعراق على أبي سعيد السيرافي(ت:360هـ) وأبي علي الفارسي(ت:377هـ)، وشَافَهَ الأعرابَ وطوَّفَ بلاد ربيعة ومضر، وعند عودته ظلَّ ملازمًا للتدريس والتأليف[23].

من السرد السابق يتبين أن حَمَلة اللغة والنحو بما وراء النهر كانوا تلامذة الطبقة الأولى من اللغويين والنحويين، سواءٌ أكان ذلك عن طريق التلقي عن هؤلاء الأشياخ مباشرة أو دراسة كتبهم لِمَن لم تتيسر له فرصة الرحلة، وينقسم هؤلاء العلماء الذين لقيهم النهريون من حيث الانتماء المذهبي إلى مدرستين: بصرية وكوفية، أما البصريون فهم الأصمعي والنضر بن شميل، وأبو معاذ النحوي. وأما الكوفيون فالكسائي وأبو عبيد القاسم بن سلام، وابن قتيبة وابن الأنباري، ومن ثمَّ فقد نشر النهريون منذ البداية أصول المدرستين البصرية والكوفية هناك.

الكتب المهاجرة

هذه الهجرة من وإلى الإقليم صاحبها هجرة من نوع آخر وهي هجرة الكتب أيضًا، فكل هؤلاء المرتحلين اصطحبوا معهم أشهر الكتب لأبرز العلماء، وقد نُقِل عن ابن سينا ما يفيد دراسته لهذه الكتب قال: "فلمَّا بلغتُ سنَّ التمييز سلَّمَني-أي: والده- إلى معلم القرآن ثم إلى معلم الأدب. والذي كلفني أستاذي كتاب "الصفات" وكتاب "غريب المصنف"، ثم "أدب الكُتَّاب" ثم "إصلاح المنطق" ثم كتاب "العين" ثم شعر الحماسة ثم ديوان ابن الرومي، ثم تصريف المازني ثم نحو سيبويه"[24]. مما يدل على أنَّ هذه الكتب قد دخلت ما وراء النهر في مرحلة مبكرة، ومن أشهر الكتب التي دخلت ما وراء النهر في هذه الفترة أيضًا كتاب "غريب الحديث" لأبي عبيد القاسم بن سلام، حيث أهداه مصنفه إلى عبدالله بن طاهر([25]) حاكم خراسان وما

(23) بغية الوعاة :1/446،447.

(24) آثار البلاد وأخبار العباد، تصنيف الإمام/زكرياء بن محمد بن محمود القزويني: 299.

25( ) حاكم خراسان وما وراء النهر، تأدب وتفقه وسمع من وكيع، وله يد في النظم والنثر، ت: 230هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء: 10/684:685.

وراء النهر حينها، والذي انقطع له أبو عبيد، وقد استحسن ابن طاهر الكتاب وقال:" إنَّ عقلا بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب لحقيقٌ ألا يُحْوَجَ إلى طلب المعاش"[26].

كما انتقلت كتب الأصمعي وأبي عبيدة روايةً عن أبي عوسجة النحوي من خلال حلقات ومجالس كان من أشهر تلاميذه خلالها الإمام الماتريدي[27].

ونقل إليهم أبو أحمد عيسى بن الجنيد الكِسِّي النحوي كتب أبي عبيدة معمر بن المثنى، ورواها عنه الإمام عبد بن حُمَيد[28] والإمام البخاري[29]، وروى الإمام الهيثم بن كليب صاحب المسند كتبَ ابن قتيبة وقرأ عليه الأدب، ودرَّس كتاب غريب الحديث لابن قتيبة وغيره[30].

جدير بالملاحظة أن معظم الكتب التي هاجرت إلى ما وراء النهر كان لها الدور الأكبر في تحديد التيار العام الذي سار فيه الدرس النحوي هناك، فهي التي تقرر نوع الكتب المتداولة لدى الدارسين والطلاب وهي التي توجه حركة التأليف، وقد بدا أثر هذه الكتب واضحًا في مصنفات هذا العصر. وبالجملة فإن غالب الكتب التي حظيت بالشهرة والتداول في ما وراء النهر في تلك الفترة كانت كتب أبي عبيد وابن قتيبة والقاسم بن محمد الأنباري (ت:304هـ) وهم من ذوي الاتجاه الكوفي.

العناية باللغويين

عاشت ما وراء النهر أزهى عصورها على الإطلاق تحت الحكم السامانى، ونافست عاصمتهم بخارى كبار العواصم الإسلامية كبغداد والقاهرة وقرطبة حتى صارت بخارى في

---

(26) تاريخ بغداد: 12 /406.

(27) القند في ذكر علماء سمرقند: ص115.

(28) هو أبو محمد عبد الحميد بن حميد بن نصر الكسي القرشي يعرف بعبد بن حميد، صاحب التفسير والمسند، إمام جليل سمع عبد الرزاق بن همَّام الصنعاني ويزيد بن هارون، روى عنه البخاري ومسلم والترمذي، يفتخر به أهل كس على سائر ما وراء النهر وكانت الرحلة إليه من الآفاق. توفي: سنة249هـ. القند: ص433.

(29) القند في ذكر علماء سمرقند: ص600.

(30) ينظر: معجم البلدان:593/1.

عهدهم "مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر"[31]. وشجع السامانيون العلماء على الإدلاء بدلوهم في جميع الفنون.

وقد تأسَّى السَّراةُ في ذلك بالأمراء فكان أن دفع الشيخ العالم أبو الحسن أحمد بن منصور (ت345هـ) الإمامَ الفارابي إلى تأليف معجمه المشهور" ديوان الأدب"[32]، وجاء تأليف أبي عبد الله الخوارزمي كتابه" مفاتيح العلوم" تلبية لرغبة الوزير أبي الحسن عبيد الله بن أحمد العتبي وزير نوح بن منصور الساماني[33]، كما كانت قصورُ السامانيين مجتمَعًا للعلماء والشعراء، واتخذوا منهم الوزراء والكُتّاب.

فقد وُلِّي أبو إسحاق إبراهيم بن علي الفارسي التصفُّحَ–بمنزلة المراجعة اللغوية– في ديوان الرسائل – بمنزلة وزارة الخارجية الآن–وكان من أعيان اللغة والنحو ليقوم على وظيفة المراقبة النحوية، بالإضافة إلى قيامه بالتدريس لأبناء الرؤساء والكُتَّاب[34]، وكان أبو الحسن محمد بن أحمد المزني –وزير نوح بن منصور الساماني(366–387هـ)– أديبًا شاعرًا[35]، وله من المصنفات كتاب "حروف الهجاء وتعريفها والإخبار عنها إثباتًا ونفيًا ووصلا وفصْلا"[36]، كما كان أبو الحسن أحمد بن محمد السهيلي الخوارزمي (ت: 418 هـ) وزير أبي العباس

---

(31) يتيمة الدهر: 115/4.

(32) ديوان الأدب، للفارابي:72/1.

(33) ينظر: مفاتيح العلوم، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الخوارزمي، تحقيق/فان فلوتن: ص2، تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان:333/4.

(34) يتيمة الدهر، للثعالبي: 171/4.

(35) معجم الأدباء، لياقوت: 91/5.

(36) تاريخ التراث العربي، د. فؤاد سيزكين:371/8. وقد طبع الكتاب بالأردن منسوبًا لأبي الحسين المزني واعتذر محققاه عن عدم معرفة اسم المؤلف، ثم طبع بالقاهرة منسوبًا لأبي الحسن علي بن الفضل المزني وهي نسبة غير صحيحة، ولم يذكر ما يفيد نسبة الكتاب لعلي بن الفضل هذا، وقد راجعت ترجمة علي بن الفضل فما وجدت الكتاب منسوبًا إليه(36)، وراجعت د. أشرف القصاص عن الأدلة التي اعتمدها في نسبة الكتاب إلى علي بن الفضل فقال إن ذلك بترجيح من د . محمد عامر- مشرفه في الدكتوراه- بالنظر إلى الكنية " أبي الحسن" فيكون اسم المصنِّف "عليًّا"، دون أدلة ملموسة. وقد جاء الخلط من أنَّ الصفحة الأولى والأخيرة من المخطوط كتب عليهما :هذا كتاب حروف الهجاء وتعريفها... للشيخ أبي الحسن المُزَني (كذا) بالكنية واللقب دون ذكر الاسم.

وقد نسبه د. فؤاد سيزكين- رحمه الله- إلى محمد بن أحمد المزني بناء على ما اطلع عليه من فهرس مخطوطات مكتبة ليدن لذا يُقدَّم ما أورده د. سيزكين لاعتماده على نسبة الكتاب نسبة صريحة لأبي الحسن محمد بن أحمد. والمثبِت مقدَّم على النافي لأن عنده زيادة علم فتتأكد نسبة الكتاب لمحمد بن أحمد المزني.

مأمون بن مأمون شاه خوارزم شاعرًا كاتبًا وله من الكتب "الروضة السهيلية في الأوصاف والتشبيهات"[37].

كما عُقِدَت بعض المناقشات والمناظرات بين العلماء برعاية الحكَّام في اللغة والنحو والصرف[38]، ومن تلك المناظرات ما دار بين الشيخ الرئيس ابن سينا وبين أبي منصور الجُبَّائي– أحد علماء اللغة–بحضرة الأمير حيث تدارسا مسألةً في اللغة فتكلم فيها ابنُ سينا بما علِم فعاب عليه الجبائي قلةَ معرفته باللغة فتوافر ابنُ سينا على دراسة اللغة ثلاث سنوات خرج منها بتصنيفين هما "المُلَح في النحو"، و"لسان العرب في اللغة"[39].

– مناهج تعليم النحو في ما وراء النهر

اعتمد المؤدِّبون النظام الشفوي في التعليم وهو رواية ما سمعوه من كبار النحويين من أخبار لغوية. واتبعوا في تعليم العربية منهجًا تعليميًّا محضًا يهدف إلى تقويم الألسن في نطقها وقراءتها، عربيةً كانت الألسن أو غير عربية، وكانت مسؤولية تعليم اللغة في هذه الآونة تقع على عاتق المحدِّثين كما ظهر من ترجمة العلماء الذين اشتهروا بتدريس النحو في هذه الفترة، ولعل المنهج العام الذي سيطر على الدراسة في تلك الفترة هو منهج المحدثين المتمثل في الاعتماد الكلي على النقل والاعتداد بالرواية، وقد كان هذا المنهج ناجِعًا في تلك الفترة يقول المؤدب: "أنشدني العبد الصالح الثقة في دينه، الثقة في روايته، قال: أنشدني أبا بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري:

فلو أن الأطبا كانُ حولي..."[40].

---

(37) معجم الأدباء، لياقوت:17/1.

(38) التاريخ الحضاري لبلاد خوارزم: ص156

(39) ينظر: طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة: ص443.

(40) دقائق التصريف:ص15.

ويقصد بالعبد الصالح الهيثم بن كليب الشاشي المحدث الكبير، ويكون بذلك قد استوفى ركنًا مهمًّا من أركان الاحتجاج وهو الاعتماد على ما رواه الثقات عن العرب بالأسانيد المعتبرة([41])، وقول المؤدب: "حدثني الثقة" منهج متبع من لدن إمام النحاة "سيبويه" حين كان يحدث عن أبي زيد، وقد روى السيوطي أن يونس كان يقول: "حدثني الثقة عن العرب فقيل له: من الثقة؟ قال: أبو زيد، قيل له: فلم لا تسميه؟ قال: هو حيٌّ بعد فأنا لا أسميه"([42]).

من الأصول النحوية عند نحاة ما وراء النهر في تلك الفترة

إذا كان النحو قد بلغ غايته على يد هؤلاء الأعلام فحريٌّ بنا أن نتبين مدى ما أحدثوا من آراء، وما كان لهم من مذاهب واتجاهات لتكمل لنا صورة النحو واضحة في هذا الإقليم إبان تلك الفترة على الأصول النحوية المعتمدة عند أئمة الصناعة من سماع وقياس.

أولا: السماع

هو الدليل الأول في اللغة، وكل أدلة هذه الصناعة مبنية عليه خاضعة له، وهو ما سمَّاه ابن الأنباري النقلَ، وحدَّه بأنه:" الكلام العربي الفصيح المنقول بالنقل الصحيح الخارج عن حدِّ القلة إلى حد الكثرة"([43])، ويعتمد النحاة في السماع على ما أُخِذ من أفواه العرب الخلَّص الذين يوثق بفصاحتهم، ولم يكن السماع على إطلاقه بل كان مقيَّدًا بعدد من القبائل اشتُهِرت بفصاحتها عند جُمَّاع اللغة، وبأنها أفصح من غيرها، وذلك اعتمادًا على تقسيم جغرافيٍّ وضعوه حرصوا فيه على استبعاد لغاتِ القبائل التي يُخشَى أن يكون قد أصابها لحنٌ كالقبائل المجاورة لمصر

([41]) الاقتراح: ص45.

([42]) الاقتراح: ص57.

(43) لمع الأدلة في أصول النحو، لأبي البركات عبد الرحمن كمال الدين بن محمد الأنباري: ص81.

والشام وفارس والهند والمخالطين للأحباش واليهود والفرس[44]، وكان موضوع الأخذ عن الفصحاء ميدانَ سباق بين علماء اللغة، وكُتبُ النحو ملأى بالمفاخرات بينهم في ذلك.

وقد كان للصبغة الكوفية التي صبغت النحو في ما وراء النهر أثرُها في قضية السماع حتى مَن دخل منهم في عِداد البغداديين – كابن الخياط– كان متأثرًا بالمنهج الكوفي إلى حد بعيد؛ ومن المعلوم أن الكوفيين نقلوا عن القبائل الضاربة في أعماق الصحراء الذين نقل عنهم البصريون، ولم يكتفوا بذلك بل توسعوا في الرواية عن جميع العرب بدويِّهم وحضريِّهم، كما كانوا متفوقين على البصريين في رواية الأشعار[45]، هذا التوسع في رواية الشعر جعلهم يرصدون كل ما تضمَّنه من ظواهر لغوية وصرفية ونحوية فيبنون عليها قواعدهم دون التشدد في مصادر هذا الشعر ودون التثبت من فصاحة قائليه على العكس من البصريين الذين لم يكونوا ينقلون الشاهد إلا إذا وثقوا به[46].

وقد تأثّرَ النحاة النهريون بالمنهج الكوفي فنجد المؤدب يقول:" فأمَّا السماع فلا يُصْدَف عنه ولا يتكلم بغيره"[47]، والمزني كثيرًا ما ينقل عن قبائل العرب فتراه يذكر اشتقاق المصادر من بعض الأسماء على وزن فُعُول كالأبوة والبنوة وهذه يوقف معها على السماع([48])، فمعتمدهم السماع يجيزون لوروده، ويمنعون لعدمه.

لعل أبرزَ مسألة ظهر فيها أثر السماع في نحو النهريين وتأثرهم الجلي بالمنهج الكوفي هي **المسألة الزنبورية** أشهر مسألة في تاريخ النحو العربي، وهي المسألة التي دارت حولها المناظرة الشهيرة بين سيبويه (ت:180هـ) والكسائي (ت:189هـ)–رحمهما الله– ونصها: (قد

---

(44) ينظر: الاقتراح في أصول النحو، للسيوطي: 44،45.

(45) ينظر: تاريخ النحو، الأستاذ/علي النجدي ناصف: ص31،32.

(46) تاريخ النحو، علي النجدي ناصف: ص31،32.

(47) دقائق التصريف: ص447.

48( ) ينظر: حروف الهجاء: 273/2.

كنت أظن العقربَ أشدَّ لسعةً من الزنبور فإذا هو هي أو فإذا هو إياها؟) فكان جواب سيبويه في هذا وأمثاله وجوب الرفع فإذا هو هي، بينما أجاز الكسائي فيها الرفع والنصب فيقال: فإذا هو هي أو فإذا هو إياها، وأيَّد رأيه بكلام أعراب الحَطَمة، وهم من الأعراب القاطنين ببغداد، ممَّن لا يعتد سيبويه بقولهم لمخالطتهم الحضر. وتواصَل الخلاف في المسألة ذاتها بين تلاميذ الشيخين هذا يجيز ويأتي بأدلة، وذاك يمنع ويدحض تلك الأدلة. واستمر الخلاف قائمًا، وقد أدلى أبو بكر بن الخياط(ت:320هـ) بدلوه في هذه المسألة، وكان يميل إلى مذهب الكوفيين بجواز الرفع والنصب فيها، مؤيدًا لما روي عن العرب فذكر أن النصب يتوَجَّه على أن "إذا" ظرف يتضمن معنى" وجدت" و"رأيت" فجاز له أن ينصب المفعول، وهو مع ذلك ظرف مخبر به عن الاسم بعده"[49]، فيكون تخريج المثال على قول ابن الخياط: "إذا" ظرف مكان خبر مقدم، و"هو": مبتدأ مؤخر، و"إياها" مفعول به للظرف"إذا" المتضمن معنى وجد. وقد أبطل البصريون ما ذهب إليه أبو بكر من وجهين، أحدهما: أن الأسماء المتضمنة للمعاني لا تنصب المفاعيل الصريحة كالمفعول به، والمفعول المطلق والمفعول معه، وإنما تعمل في الظروف والأحوال[50].

ثانيهما: القول بأنها تنصب مفعولا لتضمنها معنى "وجد" يلزم منه وجود فاعل ومفعول ثان، على تقدير: وجدته إياها، فينبغي إذن أن يقال: فإذا هو إياها إياها، والحاصل في قولهم: فإذا هو إياها أنه لم يؤت بالفاعل والمفعول الثاني للفعل المعنوي[51]، وإن قيل إنَّ:"إذا" بمعنى "وجدت" ولا تعمل عملها كقولهم: حسبُك زيدٌ بمعنى الأمر وهو اسم ليس فعلا، وقولهم" أحْسِن بزيد" لفظه لفظ الأمر وهو بمعنى التعجب، وقوله تعالى ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[52] أي: انتهوا،

(49) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري:158/1.

(50) مغني اللبيب158/1، الأشباه والنظائر، جلال الدين السيوطي: 67/3. شرح الدماميني على مغني اللبيب، بهامش الشُّمُنِّي على مغني اللبيب:ص194.

(51) الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، لأبي البركات الأنباري: 705/2، تذكرة النحاة:ص179. ص180، مغني اللبيب: 65/2.

(52) سورة المائدة، من الآية: 91.

لفظه لفظ استفهام والمراد: الأمر، فكذلك يقال هاهنا: إنَّ إذا تضمنت معنى" وجدت" ولكنها لم تعمل عملها[53]؛ فهي في اللفظ ظرفُ مكانٍ، وظرفُ المكان يجب رفع المعرفتين بعده فوجب أن يقال: فإذا هو هي.

وقد أجاب ثعلب عن الاعتراض الثاني بأن "هو" في قولهم: فإذا هو إياها عماد- ضمير فصل-، والمفعول الأول محذوف مع الفعل، والتقدير: وجدته، وردَّه البصريون بأن العماد عند الكوفيين -وهو المسمى عند البصريين فصلا-، يجوز حذفه ولا يختل المعنى بحذفه ففي قولهم: كان زيدٌ هو القائمَ، إنْ حُذِف العمادُ فقيل: كان زيدٌ القائمَ، لم يختل معنى الكلام بحذفه، وكان الكلام صحيحًا، ولو حذف من قولهم: فإذا هو إياها لاختل معنى الكلام وبطلت فائدته لأنه يصير: فإذا إياها، وهذا لا معنى له ولا فائدة فيه. وهذا القول حكاه أبو زيد الأنصاري عن العرب بالنصب: قد كنت أظن العقربَ أشدَّ لسعةً من الزنبور فإذا هو إياها، والبصريون يرجحون أن سيبويه- رحمه الله- بَلَغته هذه الرواية لكنه لم يستجزها لمخالفتها للقياس[54].

وعلى أية حالٍ فإنَّ هذه المسألة تحديدًا توضح النمط الاجتهادي في تفكير ابن الخياط النحوي بطرح تعديلات جديدة ومحاولة فرضها على اللغة وتطبيقها على الحالات المنقولة عن العرب، وتوضح تأييده لكل ما صح نقله عن العرب والاجتهاد في تخريج هذا المنقول.

ثانيا: القيــاس

مصدر عقلي محض يمكِّن الإنسان من النطق بآلاف من الكلم والجمل دون أن تقرع سمعه من قبل[55]، لا ضير في هذا، لقي القياس النحوي معارضة واسعة من جملة من

(53) الإنصاف في مسائل الخلاف: 705/2، تذكرة النحاة:ص179.

(54) تذكرة النحاة:ص180.

(55) القياس في اللغة، للشيخ/محمد الخضر حسين: ص24.

الباحثين[56] ناسبين إياه إلى المنطق الأرسطي مدعين أن النحاة اقتبسوا أصوله محاكاة للمتكلمين وأصحاب الجدل، والحق أن أقيسة أوائل النحويين كانت أقيسةَ فطرةٍ وطبيعةٍ ولم تكن أقيسةَ منطقٍ وجدلٍ، إنها الأقيسة الفطرية التي يستنتجها العقل البسيط، وهي بهذا المعنى ليست غريبة ولا دخيلة على البيئة العربية الإسلامية، كيف وقد كان النبيρ يستعمل القياس في كثير من أحاديثه الشريفة يؤكد به الأحكام الشرعية والأصول الدينية[57]، وسار على هديه الفقهاءُ، فهي ضرورةٌ دعت إليها حاجة المجتمع المسلم وعرفوه بأنه:" حمل فرع على أصل في بعض أحكامه بمعنى يجمع بينهما"[58]، فقد روي عنه ρ: "أنه لمَّا سألته الجارية الخثعمية، وقالت: يا رسول الله، إنَّ أبي أدركته فريضة الحج شيخًا زَمِنًا لا يستطيع أن يحُجَّ، إنْ حجَجْتُ عنه أينفعه ذلك؟ فقال لها: أرأيتِ لو كان على أبيك ديْنٌ فقضيتِه أكان ينفعه ذلك؟ قالت: نعم، قال: فدين الله أحق بالقضاء"([59]) قال الإمام الآمدي معلِّقًا: ووجه الاحتجاج به أنه ألحق دَيْن الله بدَين الآدمي في وجوب القضاء ونفعه وهو عين القياس"[60]، وهو مع ذلك لا يمكن أن يعد مصدرًا مستقلا بل هو مكمِّل ومتمِّم للمصادر الأخرى[61].

أما قياس النهريين في هذه الفترة فلم يكن قياس منطق وجدل بل هو القياس الفطري القائم على المقارنة بين الأشياء ومعرفة صفاتها المتشابهة، ثم استنباط المقاييس والأصول من هذه الصفات المتشابهة وقياس لفظ على لفظ وصيغة على صيغة دون تعقيد، ومن ثمَّ فقد استمد النهريون قياسهم من الشواهد الجارية على ألسنة العرب، ولم يبعد النهريون في قياسهم كثيرًا عن قياس الكوفيين الذين اعتدوا بالسماع وتوسعوا في القياس حتى قاسوا على القليل والشاذ، وهو ما

---

(56) ينظر: أصول النحو العربي، د. محمد عيد: 76.

(57) الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، تأليف/ د. عبد العال سالم مكرم:ص110 .

(58) اللمع في أصول الفقه، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي: ص225.

([59])

(60)الإحكام في أصول الأحكام، لسيف الدين الآمدي:818/4.

(61) دراسات نحوية في البصرة: ص158.

عبر عنه القدماء بقولهم: "عادة الكوفيين إذا سمعوا لفظًا في شعر أو نادر كلام جعلوه بابًا أو فصلا"[62].

والنهريون في هذه الفترة ما زالوا متأثرين بالنزعة الدينية والناحية الفقهية الحديثية متجنبين النواحي الفلسفية والمنطقية في دراسة اللغة، معتمدين على النقل والرواية، معتزين بالنصوص المسموعة والمروية عن العرب محترِمين لها؛ لذا ابتعدوا عن القياس الجدلي، واحترموا كلَّ نصٍّ وارد عن العرب حتى لو كانت لهجة غير غالبة، لا عجب إذن أن يخلو صِحاح الجوهري من كل أثر فلسفي، على الرغم من دراية الرجل بعلم الكلام، وكذلك دقائق التصريف، وتَمَثَّل قياسهم في إلحاق لفظ بأمثاله في حكم ثبت باستقراء كلام العرب حتى انتظمت منه قاعدة عامة[63].

وسلكوا مسلك الكوفيين في الاتساع في الرواية والقياس على القليل من لغة العرب من ذلك ما حكاه أبو القاسم الزجاجى من إجازة ابن الخياط حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه على إعرابه (الجر)، وذلك في مسألة أرسلها أبو بكر الشيبانى[64] إلى أبي القاسم الزجاجي وهى: "هذا زيدٌ السعديُّ سعد بكرٍ" كيف يعرب سعد وما الاختيار فيه؟ فقال الزجاجى: يختار الكوفيون فيها الخفض على معنى: زيدٌ من سعدٍ، ثم تقول: سعدِ بكر، على الترجمة[65]؛ لأنَّا نريد بهذا الكلام الإضافة وليس يمتنعون من إجازة نصبه، فأما أصحابُنا البصريون فلا يجيزون خفض هذا ألبتة"[66] ثم قال:" فيقول أصحابنا-البصريون-: زيدٌ السعدىُّ سعدَ بكر بالنصب على: أعنى سعدَ بكر، ولا يمتنعون من الرفع على معنى: هو سعدُ بكرٍ، وليست هذه المسألة مسطرة

---

(62) همع الهوامع:45/1.

(63) القياس في اللغة، الشيخ/محمد الخضر حسين:ص27.

(64) هو محمد بن عثمان بن مسبح أبو بكر المعروف بالجعد الشيباني النحوي أحد أصحاب ابن كيسان، من تصانيفه: غريب القرآن والمقصور والممدود، وخلق الإنسان. بغية الوعاة :1 /171.

(65) مصطلح الترجمة تقابل اصطلاح البدل عند البصريين.

(66) التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل،لأبي حيان الأندلسي: 141/12، منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك، لأبي حيان الأندلسي:216/3.

لأصحابنا في شيء من كتبهم، وهى مُسَطَّرة في كتب الكوفيين ولكنى سألت عنها أبا بكر الخياط وابن شقير فأجاباني بما ذكرت لك"[67].

والأمر فيه تفصيل، إذ أجاز النحويون حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه على إعرابه مجرورًا، ولكن بشرط أن يكون المضاف المحذوف مماثلا للذي كان معطوفًا عليه قبل الحذف ومنه قولهم: ما كلُّ سوداءَ تمرةً ولا بيضاءَ شحمةً، أي: ولا كلُّ بيضاءَ شحمة، وقول الشاعر:

أكلَّ امرئ تحسبين امرأً ونارٍ توقَّدُ بالليل نارًا [68]

فحذف المضاف "كل"، وأبقى المضاف إليه مجرورًا لتحقق الشرط وهو أن المضاف المحذوف معطوف على مماثل له وهو "كل" في قوله: أكلَّ امرئ.

أما حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه على إعرابه مجرورًا بغير ما ذكر من شرطي المماثلة والعطف كقول العرب: يعجبني القيامُ زيدٍ، أي القيامُ قيامُ زيدٍ، يعجبني الإكرامُ عندك سعدٍ بنيه، أي إكرامُ سعدٍ، فقد منعه البصريون وحملوا ما جاء منه على الشذوذ إنْ صحَّ نقلُه[69].

وعللوا ذلك بأمرين أحدهما: أن المضاف نائبٌ عن حرف الجر ودليلٌ عليه، فإذا حذفت المضافَ فقد أجحفْتَ بحذف النائب والمنوب عنه، والأمر الثاني: أن المضاف يعمل الجر فى المضاف إليه، ولا يحسن حذف الجار وإبقاء عمله[70].

أما الكوفيون فقد أجازوا حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه على إعرابه ومستندهم فى ذلك السماع، فاستدلوا بقول الشاعر:

رحِم الله أعظُمًا دفنوها بسِجِسْتانَ طلحةِ الطَّلَحاتِ[71]

---

(67) منهج السالك، لأبي حيان:216/3، والأشباه والنظائر للسيوطي:95/3.

(68) البيت من المتقارب، لأبي دؤاد في الكتاب:66/1، منهج السالك، لأبي حيان:212/3، وشرح ابن عقيل:77/2.

(69) منهج السالك، لأبي حيان: 215/3.

(70) ينظر شرح المفصل، لابن يعيش: 26/3.

بتقدير: أعظمَ طلحةِ الطلحاتِ.

وبقول الآخر: المالُ ذي كَرَمٍ ينمى محامده ما دام يبذله في السرِّ والعلنِ[72]

أي: المالُ مالُ ذي كرم، فحُذف البدل وأبقي عمله.

وبما حكى الكسائى عن العرب من قولهم: أطعمونا لحمًا سمينًا شاةٍ ذبحوها. أي: لحمَ شاةٍ ذبحوها[73].

وحكى الفراء عن العرب: "أما والله، لو تعلمون العلمَ الكبيرةِ سنُّه، الدقيقِ عظمُه"[74]، أي العلمَ علمَ الكبيرةِ سنُّه، علم الدقيقِ عظمُه.

والنحويون على أنَّ الجر والحالة هذه محفوظ لا يُقاس عليه[75]، بينما أجاز الكوفيون هذا كله وأجازوا القياس عليه، وخرَّجوا عليه قول النبي ρ:" فلما قدِم جاءه بالألفِ دينارٍ"[76] على تقدير: بالألفِ ألفِ دينارٍ، وما جاء في حديث الدَّجَّال:" قلنا: يا رسول الله، ما لُبْثُه في الأرض؟" قال: أربعين. أي: لُبْثُ أربعين[77]. فجميع هذا جاء على حذف البدل –المضاف– وإبقاء عمله.

---

(71) البيت من الخفيف، وقائله عبيد الله بن قيس الرقيات، ينظر: ديوانه: ص20 برواية: نضَّر الله.. طلحةِ الطلحاتِ(بالجر)، والإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب، للفارقي: ص114، شرح المفصل لابن يعيش: 47/1، شرح التسهيل لابن مالك: 271/3، منهج السالك، لأبي حيان:214/3.

(72) البيت من البسيط، وهو بلا نسبة في شرح التسهيل لابن مالك: 272/3، وشواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، لابن مالك: 58، التذييل والتكميل: 138/12.

(73) منهج السالك، لأبي حيان:214/3.

(74) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(75) توضيح المقاصد والمسالك، لابن أم قاسم المرادي: 281/2، شرح الأشموني: 513/2.

(76) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الكفالة، باب الكفالة في القرض...، حديث رقم"2169، وروايته: فأتى بالألف دينارٍ". الجامع الصحيح، للإمام/ أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، ضبطه وشرح ألفاظه ووضع فهارسه/د. مصطفى ديب البغا.

(77) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده :442/13 حديث رقم(16971)، وإسناده صحيح.

أما ما روي من قول العرب: "رأيت التيميَّ، تيمِ فلان"، والسعدي سعدِ فلان وهي مسألة أبي بكر، فقد ذهب الكوفيون إلى أن " تيم " مجرورٌ لأنه بدل من الياء التى للنسب فى التيميّ، وموضع ياء النسب جرٌّ لذلك خفض"تيمِ عديٍّ" واستدلوا عليه بقول الشاعر:

إذا نزل الأزديُّ أزدِ شنوءةَ بأرضٍ صعيدٍ طاب منها صعيدُها[78]

وردَّ البصريون هذا التخريج بأن ياء النسب حرفٌ جاء لمعنى فى الاسم وصار حرفَ إعرابٍ كتاء التأنيث وعلامة جمع المؤنث، والحرفُ لا موضع له من الإعراب فكيف يبدل منه[79].

وجعل السيرافيُّ الخفضَ فيه على إضمار "مِنْ"، والتقدير: التيميّ مِن تيمِ عديٍّ، ودلَّ على "مِنْ" معنى النسب، فإذا قلت: زيد تيميٌّ فكأنك قلت: زيدٌ مِنْ تيمٍ[80].

أما أبو بكر بن الخياط فقد خرَّجه كما في جواب أبي القاسم الزجاجي على الوجه الذي قال به الكوفيون، قال الزجاجي:" يختار الكوفيون فيها الخفض على معنى زيدٌ مِنْ سعدٍ، ثم تقول: سعدِ بكرٍ على الترجمة لأنَّا نريد بهذا الكلام الإضافة"[81]، قال الفارقى: "وهذا شاذ لأنه يقل في كلامهم حذف الجار وإبقاء عمله، ولكن إذا كان عليه دليل مع تقديره حسُن بعض الحسن"[82].

وخرَّجه الفارسي على تقدير: مررت بالتيمي أحد تيم عدي، صاحب تيم أو ذي تيم عدي وأنكر تخريج ابن الخياط[83]. والنحويون على أن الجر والحالة هذه محفوظ لا يقاس عليه وفى المسألة جواز النصب على "أعني"، والرفع على معنى: هو سعد بكر.

---

(78) البيت من الطويل، وهو بلا نسبة في جمهرة اللغة لابن دريد:73/3 مادة(شنو) وروايته هناك: إذا نزل الأسدي أسد شنوءة، ينظر: ارتشاف الضرب: 1841/4.

(79) ينظر: التذييل والتكميل لشرح التسهيل: 140/2،141.

(80) ينظر: التذييل والتكميل لشرح التسهيل: 140/2، ارتشاف الضرب: 1840/2

(81) منهج السالك، لأبي حيان: 216/3.

(82) الإفصاح للفارقي: ص115.

(83)التكملة لأبي علي الفارسي: ص50،51. ينظر: ارتشاف الضرب: 1840/4، .شرح التسهيل لابن مالك: 3/ 271، وينظر: شرح الأشموني: 513/2.

إذن فاختيار أبي بكر بن الخياط الخفض في قولهم: هذا زيد السعديُّ سعدِ بكر وأمثاله، قياس على المسموع عن العرب، وإن دلَّ فإنما يدل على تتبع النهريين لأقوال الكوفيين ومنهجهم، وأنهم ما أيدوه إلا لجوازه ونقله عن العرب وإن لاقى معارضة من البصريين يقول القاضي الجرجاني:" ولأهل الكوفة رُخَص لا تكاد توجد لغيرهم من النحويين،غير أنهم لا يبلغون بها مرتبة الإهمال للقواعد العامة"(84).

الخاتمة

1- المتبصر بتراجم النحويين النهريين يستطيع أن يخلص إلى سلسلة نحوية منهم تشبه إلى حد بعيد سلاسل الرواة في علم الحديث، ولهذا الأمر فائدة عظمى إذ تَقِفنا مثل هذه السلاسل على مدى مصداقية الخبر النحوي أو اللغوي الذي وصل إلينا، كما تَقِفنا على اتجاه صاحب الخبر ومذهبه، الأمرُ الذي يعني أهمية كبرى لدارس النحو واللغة إذ يستطيع تبين ما إذا كانت هذه اللغة شاذة أو قليلة وأقرها هذا النحوي؛ لأن مذهبه الاعتداد بكل مسموع وإن كان لغة قليلة أو غير ذلك، ومن تلك السلاسل النحوية التي مثلت النهريين: الثعالبي عن أبي بكر الخوارزمي عن ابن خالويه عن أبي عمر الزاهد عن ثعلب(85) عن سَلْمويه عن الفراء. والمؤدب عن الهيثم بن كليب الشاشي عن ابن قتيبة، والمؤدب عن الهيثم بن كليب الشاشي عن أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري عن ثعلب.

2- إن المُرَاجِع لتراجم نحاة النهريين والمدقق في آرائهم يجد أن القوم كانوا ذوي مشارب مختلفة وثقافات متعددة، فمصادرهم في المعرفة متنوعة فابن الخياط مثلا يجالس ثعلب والمبرد- على قول القفطي والخطيب البغدادي- فينهل من معين البصريين والكوفيين، ويوازن ويختار حتى يصل إلى درجة الشارح لأقوال الكوفيين المعلل لآرائهم واختياراتهم، وعلى الجانب الآخر تجد الجوهري لغويًّا بصيرًا شافَهَ الأعراب

(84) الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي بن عبد العزيزالجرجاني: ص453.

(85) ينظر بغية الوعاة: 529/1.

ودخل ديار ربيعة ومضر، كما أخذ عن السيرافي والفارسي، فجمع الحُسنَيَيْن من علوم اللسان. والفارابي ذهن صرفي متوقد يتمكن من إعداد معجم أبنية لم يسبق إليه، والمؤدب يسرد من الشواهد ما يجعله ابن مالك عصره.

3- حظي علما هذا الإقليم بثراء فكري منقطع النظير يجمع بين حضارات متنوعة وفنون شتّى كان لها أثرٌ كبير على الدراسات النحوية في هذا العصر وفي القرون التالية.